القرآن والمدد النهضـــوي

الأستاذ صالح دبوبة

الجماهيرية الليبية

بسم الله الرحمن الرحيم، لعل من أكبـــر الإشكاليات المفتعلة التي تواجهنا ادعاء التصادم بين الدين والحضارة وبين الوحـــي والعلم، ومن دعاوى ذلك التصادم أن العلم والحضـــارة في تطور والدين في ثبات، وأنهما تحرر وهو انقيـــاد، وهما ثـــورة من أجل المستقبل والدين نكوص في الماضي، فكيف نستطيع أن نعتقـــد ونقنع غيرنا بأن الإسلام يواكب العصر ؟ وهل يمكن أن يكون كتاب الإسلام ومعجزاته مصدراً لاستمداد طاقة التقدم ودوافع النهوض ؟ وهل يكون هداية إلى الازدهار كما هو هداية إلى الإيمان؟

لعلنا بالنظر المتأمل في الخطاب القرآني منطوقاً ومفهوماً نقف على إجابات عن هذه الأسئلة المتولد بعضها من بعض، ومن مقتضيات المنهج السوي أن نحدد بعض المفاهيم والمصطلحات الموظفة في هذا البحث .

فالعلم في مفهومه القرآني مراد به :- ما يدركه الإنسان بالنظر في السمـــاء والأرض، وما يستمده من المغيبات بطريق الوحي، قال تعالى: ﴿أَوَلَم يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَتِ وَالأرضِ وَمَا خَلَقَ اللّه مِن شَيءٍ﴾ [الأعراف 185]، وهو يشمل العلوم الكونيـــة والإنسانية والشرعية على الســـواء، والحضارة: القيم الروحية والمظاهر المادية والعلمية[1] المتآلفة في توازن وانسجام يقول مالك بن نبي: "الحضارة

1-عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ج. 4، المركز الثقافي، الدار البيضاء،1996، ص. 185.

مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي (البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها"[1] ، ويُعني بالنهضة: مواجهة التخلف والجهل والظلم بالتحرر والتعلم والبناء.

والثقافـــة: "هي كل ما يحدد خصائص حضارة ويعطيها سماتها الخاصة، ويحـــدد قطبيها"[2] ؛الفكر هو المعالم العقلية والعلمية المشكلة للطاقة الروحية في هيكل الحضارة، وهو أخص من الثقافـــة، والتراث: هو ما نُقـــل إلينا من أعراف ثقافيـــة قديمـــة لا ترتبط بحاضر ولذلك لا يصح أن يُطلق على مصادر الفكر الإسلامي يقول عبد الله العروي :"إن مفهوم التراث يطمس التعاقب الزمني والتمايز الاجتماعي في حين أن مفهوم السنة يكشف عند التدقيق عن تلك المتغيرات التاريخية والاجتماعيـــة[3] "والثورة تعني في الاستعمـــال العلمـــي: الانطلاقـــة الواثبـــة نحو النهضة، والإصلاح يُراد به التدرج في التخلص من العوائق والتعلق بأسباب النهوض. ويمكن تلخيص حركة القرآن المتجددة في دفع معتنقيه إلى النهوض، وحجزهم عن النكوص في المجالات الآتية:

أ- المدد الروحي:

مع أن الإيمـــان ظاهرة روحية محضة في حقيقته، فإن له آثاراً خارجية تنسجم في تفكير المؤمن وسلوكـــه، وتكيفـــه مع الحياة الاجتماعيـــة سلبـــاً وإيجابـــاً، أخذاً وعطاء، تأثيراً وتأثراً، وكلما كان الإيمان قاراً في النفس ملازماً لها كان المؤمن

1-شـــروط النهضة /ترجمة عمر كامل وعبد الصبور شاهين /القاهرة،دار الفكر،ط1969،3،ص. 62

2- قطباها: الروح والمادة

3- عبد الله العروي. 192

قوياً مؤثراً متفاعلاً مع محيطه الخارجي، بحيـــث يولد في نفس صاحبه طمأنينة وسكينة تجعله غير متردد في إنجاز وظيفته الحيوية وإبلاغ رسالته الإصلاحيـــة، يقول تعالى: ﴿الذين ءامَنُوا وَتَطمَئِن قُلُوبُهُم بِذِكرِ الله﴾ [الرعد **28**] ولكنها الطمأنينة التي لا تزيد المؤمـــن إلا انطلاقـــا، يقول تعالى: ﴿الذين صَبَرُوا وَعَلَى رَبِهِم يَتَوكَلُـــونَ﴾ [العنكبوت **59**]، وبهذا التشكل الإيماني الروحي، يصبح المجتمع ناهضاً ليقظة نفوس أفـــراده وقوة طاقاتهـــم الروحيـــة التي تتـــوق إلى التفاعـــل مع الحياة والإبقـــاء على منهـــج الحق والبناء، وثائرة على الباطل وعوائق التخلف، فالقرآن يفجر بالإيمان إرادة التغير التي هي أول دوائر النهوض، ومن مظاهرهـــا الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ والمُؤمِنُونَ والمُؤمِنَتُ بَعضُهُم أَولِيَاءُ بَعضٍ يَأمُـــرُونَ بالمَعرُوفِ وَيَنهَـــونَ عَنِ المُنكَـــرِ﴾ [التوبة **71**]، وقال تعالى: كُنتُـــم خَيرَ أُمَـــةٍ أُخرِجَـــت لِلناسِ تَأمُـــرُونَ بالمَعـــرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران **110**]، ويقرر القرآن أنه لا تحول للنفس من الفساد إلى الصلاح ومن الشر إلى الخير إلا بإرادة الإنسان هذا في الدورة الإيجابية، وكذلك الأمر في الدورة السلبية من الصلاح إلى الفساد، قال تعالـــى: ﴿ إن الله لاَ يُغَيرُ مَا بِقَومٍ حَتى يُغيرُوا مَا بِأنفُسِهِم﴾ [الرعد**11**]. وقـــال تعـــالى: ﴿ ذَلِكَ بِـــأن اللهَ لـــم يَكُ مُغَـــيراً نِعمَـــةً أَنعَمَهـــا عَلـــى قَـــومٍ حَتى يُغَيرُوا مَا بِأَنفُسِهِم ﴾[الأنفال 53] ولما كان الإيمان من أعظم الوسائل والذرائع التي تحث على الخير وتحجز عن الشر كان دافعاً في الحياة الدنيوية إلى السعادة في التوافق مع الحاجات الذاتية والعناصر الحضارية، كما أنه مصدر السعادة للحياة

الأخروية، فيحفظ التوازن بين حق الفرد في الاستمداد، وواجبه في الإمداد، ومن مقومات ذلك التوازن الحضاري المفقـــود في المجتمعات غير المتدينة هو الإيمان

بتلك الحياة الأخروية الذي يشعرنا بأنه لن يهضم لنا حق، فيضاعف من عطائنا، ولا نغالي في تزودنا، يقول تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ [طه **112**] والإيمان هو الذي حجز سحرة فرعون عن الفساد، وحولهم من مضللين بالباطل، إلى مجاهرين بالحق، قال تعالى في تصوير موقفهم الجديد بعد إيمانهم الثائر على كفر فرعون وظلمه: ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾ [**طه72، 73، 74**] وقد أوعد الله أهل الطغيان من الأفراد والأمم أن يهلك مساكنهم ومكاسبهم وحضاراتهم إن لم يلتزموا بالإيمان لأنه الضابط الروحي الذي يدفع إرادة الإنسان إلى الخير، ويمنعها من الشر، فقد قص علينا القرآن نماذج من فساد مكتسبات بسبب كفر أصحابها، قال تعالى في صاحب الجنتين: ﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا﴾ [الكهف **42**]، وقال في قارون وثروته: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لو لا أن من الله علينا لخسف بنا، ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ [**القصص82**]

وكان تعطيل العامل الروحي وترك تفصيل الإيمان سبباً في إنهيار حضارة عاد التي بلغت من المادية مبلغاً عظيماً بالعمارة، وقوة الجيوش، وكثرة العدد، وتنوع الخيرات، قال تعالى: ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة إلا إن عاد كفروا ربهم ألا

بعداً لعاد قوم هود﴾ [ثمود 60]، وكـــذلك شـــأن حضارة ثمـــود، قال تعالى: ﴿ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ [هود 68]، وفي حضارة سبأ عبرة يشهدها كل ذي عقل رشيد، قال تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشئ من سـدر قليـــل، ذلك جزينـــاهم بما كفـــروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ [سبأ15،16،17]

وقص علينا القرآن مصير الحضارة التي يتمسك أهلها بالإيمان وأنهم لا ينتكسون ماداموا مؤمنين قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾ [يونس98]، وبين القرآن أن ذلك سنة اجتماعية في خلقه، قال تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ [الأعراف 96]

فالقوة الروحية في القرآن ليست قوة سلبية تجذب صاحبها إلي العزلة وطرح الدنيا ولكنها قوة مزدوجة من السلب والإيجاب تبعده عن الشر وتدفعه إلي الخير، فهي هادمة للفساد، بانية للبر، ليست كروحانية الإنجيل الذي يقول: (إن أردت أن تكون كاملاً فأذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني)[1]، أو الذي يقول: (لا تقدرون أن تخدموا الله والمال)[2]، ذلك لأن الإنجيـــل يعالج حقارة مادية موقوتة الزمن ومحددة الإقليم والقـــرآن يبعـــث الإســـلام الذي يســـع العام وزمنـــه، والتاريـــخ وحركته، إنـــه النـــداء الذي يقـــول: ﴿ وابتـــغ

1- شـــروط النهضة. ص. 103

2- مقدمة ابن خلدون. دار العودة. د. ت. ص. 124

فيما ءاتيك الله الــدار الآخرة ولا تنس نصيبــك من الدنيــا﴾ [القصص **77**] وقال: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ [المائــدة **87**]، والقائل في صاحب الدعوة: ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهــم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحــل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾[الأعراف **157**].

وهناك علاقــة عكسية طردية بين القوانين الروحية والغريزية في الإنسان، حيث تساهم الأولى في بناء النهضة وتعمل الأخرى فعلها في الهدم الحضاري، يقــول مالك ابن نبي: " ومن الطبيعي أن الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة، وإنما هي تنطلق بقدر ما تضعف سلطة الروح "[1]، ومن أعظم ثمرات الروح الإيمانية على الصعيد الجماعي قوة التماسك الاجتماعي في حركة الأمة الحضارية حيث الألفة والتعاون قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونــوا على الإثم والعدوان﴾ [المائدة **2**]، يقول ابن خلــدون في الكشــف عن علــة تلك الألفة في ضوء قوله تعالى: ﴿لو أنفقــت مــا في الأرض جميــعاً مــا ألفت بين قلــوبهــم، ولكــن الله ألف بينهم﴾ [الأنفال **63**]، " وسره أن القلوب إذا تداعت إلي أهواء الباطل والميل إلي الدنيا حصل التنافس ونشأ الخلاف وإذا انصرفت إلي الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله اتحدت وجهتها، فذهب التنافس وكَلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلة لذلك "[2] .

والعامــل الروحي له أثره كذلك في الوقاية من مصادمة التغيير المفاجئ الذي قد يطرأ على أمة من الأمم حيث ينتقل أفرادها من مناخ حضاري إلي آخر، بسبب التقدم السريع أو الحرب مع الأقوى أو تفجير ثروات جديدة، فالتوازن الروحي هو الذي يمد الأمة بقدرة على تكيف أفرادها مع التغيرات المفاجئة سلبية أم إيجابية، يقول

تعالى في تطوير هذا الضابط الروحي في أوصاف المؤمنين: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ [الفرقان 69] وقال: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم إيماناً ﴾[آل عمران] وقال: ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ [التوبة 51]، وقال: ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ [الحج 41] .

ب_المدد العلمي:

لا يعني بالعلم في المفهوم الإسلامي حصره في نوع أو نشاط بشري بما يعبر عنه حديثاً بأنه :" نشاط ذهني منظم يهدف إلى الوصول إلى نظريات مدلل عليها وقادرة على تعليل ما يلاحظه البشر من ظواهر"[1] بل العلم في القرآن يشمل المجال المشاهد والغيبي، والمصدر الإلهي والإنساني، وهو يقصد إلى إمداد العقل الإنساني بحقائق منظورة أو مستترة وحفز العقل إلى التحليل والنظر إلى ما يشاهده من ظواهر أو يتلقى من تعاليم، وهذا الشمول أكثر ملائمة لقطبي الحضارة، الروح والمادة، فالعلم في الإسلام ليس مشخصاً في تحريك عجلة الحضارة إلى الأمام، بل يشمل صيانتها وصيانة محركها الإنسان من الانحراف عن المسار، والعلم في الإسلام من جهة أخرى محصور بالمنهج والمقصد، فيلزم فيه أن يكون محصناً بمنهج الحق الخالي من الهوى والوهم والأعراف الفاسدة، مقصوداً به إلى الخير والنفع، لذلك فإن القرآن يعاقب من يوظف العلم في الفساد أشد عقاب، قال تعالى: ﴿ وأتلُ عليهم نبأ الذي أتيناه آياتنا فأنسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ [الأعراف175،176]، وفي الوجه الآخر أكرم الله من وظف العلم في البر والإصلاح

1- نجيب الحصادي ، نهج المنهج، مصراته، الدار الجماهيرية، ط 1، ص 146.

والنهوض بالأمة، قال تعالى في شأن العبد الصالح الذي علـــم موسى عليه السلام ومن ورائـــه المؤمنين: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتينـــاه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علماً، قال له موسى هل إتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا، قال إنك لن تستطيع معي صبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴾ [الكهف **65، 66، 67، 68**] .

وها هو ذو القرنين يوظف علمه في تحصين قوم من إجتياح يأجوج ومأجوج قال تعالى: ﴿ قالـــوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا، على أن تجعل بيننا وبينهم سدا، قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً، أتوني زبر الحديد حتى إذا ســـاوى بين الصدفيـــن قال أنفخوا حتى إذا جعله نارا قال اتوني أفرغ عليه قطراً، فما سطاعـــوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴾ [الكهف **90،91،92،93**].

ويعلـــم الله داوود عليه السلام صناعة الدروع لتكون واقية للمحاربين، قال تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾ [الأنبياء**80**]. ويحث القـــرآن الإنســـان علـــى تنميـــة مـــواهبه العقليـــة في التفكير والتدبير يقول العقاد :"فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ولا يذكر العقل عرضا مقتضيا، بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحـــو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان"[1].

ولا يفصـــل القـــرآن تلك الوظائف العقلية ويجزئها في مجـــالات متباعدة، بل يؤلف بينها في انسجام، كما يؤلف بين الإيمان والعلم في الانطلاقة الحضارية فليس هناك علم بالحواس في دائرة انفصال عن علم مستنبط بالعقل، وليس هناك فجوة بين

1- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة اسلامية ،بيروت , دار الكتاب العلمي , ط **2**، **197**، ص. **9**

تحصيل العلم بالبرهان العقلي، وبين تحصيلـــه بالحـــدس الباطني، ولا يغلب علم نظري على علم عملي، بل العلاقة تكاملية وليست تقابلية، حتى إن الحدس الوجداني يندمج في النظر البرهاني، ومن أدق الدلالات على ذلك إسناد التعقل والتدبر إلى القلب في كثير من المواضع، قال تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق 37]، وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبـــرون القرآن أم على قلـــوب أقفالهـــا ﴾ [محمد 24]، وقال تعالى: ﴿وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ [التوبة87]، ونهى القرآن عن التخميـــن منهجا في إصـــدار الأحكـــام وتحقيق النتائـــج مع إعتداد بوسائل تحصيل العلم حسية وعقلية قال تعالى:﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ﴾ [الإسراء36]

وشـــدد على نبـــذ الوهـــم والهـــوى في تحصيـــل العلـــم المحـــرك لإرادة الإنســـان نحو الهـــدي والبناء، فقال تعالى مصوراً المبتلين بالهوى: ﴿ أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهـــم يسمعـــون أو يعقلون إن هـــم إلا كالأنعـــام بل هم أضل سبيـــلاً ﴾ [الفرقان 43،44] وقال تعالى: ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس

ولقد جاءهم مـــن ربهـــم الهـــدى ﴾ [النجم 23] ويدعو القرآن إلى حماية هيكل الحضارة بالإيمان والحكمة التي هي زبدة العلم،و ثمرته ويصور لنا ذلك في مشاهد قصصية تاريخية، إستدلالا من حياة المؤثرين في الحضارات الإنسانية بالهدى والحكمة، يقول تعالى في شأن داوود عليه السلام: ﴿ وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك وعلمه مما يشـــاء، ولولا دفـــع الله الناس بعضهـــم ببعض لفســـدت الأرض ولكن الله ذو فضـــل على العالمين﴾ [البقرة الآية 251]، ويقول على لســـان يوسف

الذي حصن حضارة مصر في عهده بالأمانـــة والعلم: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [يوسف **55**]، أما إذا كان العلم ضاراً خارجا عن مقصود الحكمة، فإنه يقوض الحضارات ويبيد الأمم، إذا كان علماً مادياً صرفاً لا روح فيه من حق ولا إيمان، قال تعالى: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانـــوا أكثر منهـــم وأشـــد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهـــم بالبينـــات فرحوا بما عندهـــم من العلـــم وحاق بهـــم ما كانـــوا به يستهزءون ﴾ [غافر **83،82**] والعلم إذا لم يكـــن موصـــولاً بالإيمـــان كان عاجـــزاً عن تأميـــن المسيـــرة الحضارية للإنســـان، قال تعالـــى: ﴿يعلمون ظاهـــرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [الروم**7**] ومن غفل عن الآخرة لم يحترس من العقوبات المدمرة في الدنيا قال تعالى: ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلـــم إن ربك هو أعلم بمن ضـــل عن سبيله وهو أعلم بمـــن اهتدى ﴾ [النجم **30**]، وهلك أقوام لأنهم تركوا الهـــدى والعلم وتمسكوا بأعـــراف موروثه فاسدة، وقص لنا القرآن ذلك ليحذرنا مما وقعوا فيه، قال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرســـول قالوا حسبنا ما وجدنـــا عليه أباءنا أولو كان أباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [**المائدة104**]

وتنتشر هذه الظاهـــرة عند الأمم المترفـــة عندما تتضخم فيها الحضارة المادية ويضعف فيه الوازع الروحي المحافظ على حياة كل حضارة، يقول تعالـــى في كون ذلك من سنته الاجتماعية: ﴿بل قالوا إنا وجدنا أباءنا على أمة وإن على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنـــا من قبلك في قريـــة من نذير إلا قال مترفوها إنا

وجدنـــا أباءنا على أمـــة وإنا على آثارهم مقتـــدون، قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتـــم عليـــه أباءكم قالـــوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ [الزخرف**22،23،24**].

فالحركة العلمية المستبصرة بالإيمان تدفع الأمة إلى غايات الرقي الروحي والمادي دفعاً قويماً في طريق ممهد بالعمل الصالح موصول إلى خير الإنسان .

ج- المدد العملي :

ليس العمل في المفهوم القرآني محض الجهد المبذول مهما تضاعف، بل إنه السعي إلى الأصلح من المقاصد، وإن لم يكن متحقق الحصول، في توافق مع الوظيفة المزدوجة للإنسان وهي تعميـــر الأرض، وتنفيذ أحكام الله، وبذلك يكون المسلم أحرص الناس على استثمـــار الجهد والوقت، على خلاف مايرى من أحوال المسلمين اليوم، يقول ملك مالك ابن نبي: " إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من

اللافاعلية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها فـــي العبث والمحاولات الهازلـــة، الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة "[1] .

و لم يكن ذلك شأن الناهضين في فجر الإسلام، بل كانوا يوائمون بين العلم والعمل ولا يخلدون إلى التفكير المجرد، ولا إلى العمل غير المرشد، بل يفعّلون العلم بالعلم قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :" كان الرجل إذا تعلم عشر آيات لم يتجـــاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"[2] .

1- شروط النهضة: ص **146**، **147**

2- تفسير الطبري

وقال عبد الرحمن السلمي وهـــو من التابعين: "حدثنا الذين كانوا يقرؤننا أنهـــم كانوا يستقرئون عن النبي صلى الله عليه وسلـــم، فكانوا إذ تعلموا عشر آيات لم يخالفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً "[1]

وصـــار من المتعارف عليه في الأوساط العلميـــة الإسلامية أن المتزود بالعلم لا يوصف بأنه عالـــم حتى يكون عاملاً بعلمه، فالعلم مبدأ العمل، والعمل تمام العلم.

وذلك من مـــدد القرآن الذي تفردت خصائـــص مفاهيمـــه بما يحقـــق كمـــال الإنسان الروحي والعلمي، حيث قرن العلم بالخشية والهداية، والرشد، وذكر العلماء في سياق العبادة والعمل، قال تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر28]. والخشيـــة من أعمال القلوب، كما أن العلم من نتاج العقول، وقال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ [الزمر 9]، وحسب القرآن حثاً على العمل بمفهومه الشامـــل أن قـــرنه بالإيمان في آيات كثيرة منها قولـــه تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ [هود 23]، وقوله تعالى: ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ﴾... [ص24]،وقـــال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾[مريم 96]، وخص القرآن العمل بوصف الصلاح حتى يكون وسيلة إلى البناء النافع في الدنيا، والأجر الخالص في الآخرة، وفي الجمع بين المخصوص والصفة " العمل الصالح " ومزاوجة بين القيمة والواقع يقول سميت: "إن الخاصة المميزة للإسلام

1- المرجع نفسه 8/1

لا تقوم على الأمثلة العليا التي يرفعها أمام أتباعه بمقدار قيامه على الوسائل العلمية التي يرشد بها المسلم إلى إدراك تلك الأمثلة العليا"[1]

ولقد صرح القرآن الكريم بتسخير الطبيعة للإنسان فيوظف عناصرها الحية والجامدة بعقله وجهده قال تعالى: ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية 13]، وقال تعالى في تسخير الأنعام: ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ [النمل5، 6]، ثم قوله تعالى: ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل 8]، وقال تعالى: ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ضعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ [النحل 80، 81]

وقال تعالى: ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ [الحج 65] وذلك التسخير يقتضي حركة دائبة في الحياة، مسددة بالعلم الرشيد والإيمان العميق، والمؤمنون عندما استجابوا لأمر الله كانوا يبذلون أقصى الجهد في الطاعة والجهاد والبناء للحياة، ففتحوا الممالك وعمروها بالإيمان والعمل والعلم فتمكنوا في الأرض بحضارة تجمع بين إشباع حاجة الروح وحاجة البدن على السواء وتحقق وعد الله فيهم حيث قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا

1- نقلا عن كتاب الإسلام دعوة عالمية للعقاد – بيروت – دار الكتاب اللبناني – المجموعة الكاملة – المجلد السادس ،الطبعة الأولى 1974 ص 126

الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾[النور 55]، فإذا أردنا النهوض من كبوتنا الحضارية، فلنستمد من القرآن ما يدفعنا إلى استباق ما فاتنا في تبصر علمي وتسلـــح عملي، وكما يقول ابن نبي: " يجب أولا أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى" وتاريخنا يسدد بالإسلام لا بالغرب، وترابنـــا يجب أن يزرع بالخيـــر لا بالشـــر ووقتنا يجب أن يشغل بالعمل لا باللهو، ومواهبنـــا يجب أن تصقـــل بالعلم لا بالوهم، وأهدافنا يجب ألا تحيد عن الحق، ولا يحتمل فكرنا تصوراً نتخيلـــه، بل منهجا نتمثله.